الخـــلاف النحـــويّ بيـــن البصريـــن والكوفييـــن
- دراسة تطبيقية في كتابي معاني القرآن للأخفش والفراء-

The grammatical dispute between the Basrians and the Kufians -an applied study in the two books of the Qur'an meanings for al-aKhfash and al-Fur'a

د. جيلالي بوعافية 1*، جامعة تلمســـــــــان (الجزائر) djilalibou13@gmail.com
أ.د. أحمد طيبي2، جامعة سعيـــــــــــــدة (الجزائر) nonacir.10@gmail.com
أ.د. عبد القادر بوشيبة 3، المركز الج. لمغنية (الجزائر) bouchiba_aek@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2021/05/07 تاريخ القبول: 2021/06/02 تاريخ النّشر: 2021/06/07

ملخّـــص

يعالج هذا المقال قضية الخلاف النحوي بتن البصريين والكوفيين مع دراسة تطبيقية لهذا الخلاف في كتابي معاني القرآن للأخفش والفراء، وحاولنا إيضاح ذلك من خلال عرضنا لمسائل خلافية من الكتابن.

الكلمات المفتاحية: الخلاف النّحوي، البصريون والكوفيون، الأخفش والفرّاء، معاني القرآن.

Abstract

This article deals with the issue of the grammatical dispute between the Basrians and the Kufians, with an applied study of this disagreement in the two books of the meanings of the Qur'an for al-aKhfash and al-Fur'a, and we tried to clarify this by presenting controversial issues from the two books.

Key words: Grammatical disagreement, Basri and Kufuvians, Al-aKhfash and al-Fur'a, Meanings of the Qur'an.

* المولّف المرسِـــل

مقدمـــــــة:

بعد أن نضج النحو واكتمل وتوضّحت معالمه في كتاب سيبويه، قامت جماعة ممن تتلمذوا على عيسى بن عمر وغيره، فانتهجت نهجا غير الذي عرف به الخليل الذي نقل علمه سيبويه، وأثبته في كتاب سُمِّي بعده بقرآن النحو. وعُرِف من هؤلاء محمد بن الحسن الرؤاسي ومعاذ الهرّاء، ثم الكسائي والفراء، لكن هؤلاء لم يتصدوا للنحو إلا بعد أن درسوا النحو البصري وفقهوه ممثّلا في كتاب سيبويه، وفي أشهر أعلامه البصريين. ولعلّ الأخفش الأوسط – وهو أعلم النّاس بكتاب سيبويه – أوّل من عرف بمخالفته لشيخه، وبذلك يكون قد مهّد السبيل لمن سموا كوفيين، هؤلاء الذين اقتبسوا من آرائه، أضافوا ذلك إلى آرائهم فكوّنوا مذهبا على ما في ذلك من تجوز في التسمية، هو المذهب الكوفي. ومن ثمّ عرف نحو الأولين أمثال أبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب وغيرهما بالنحو البصري، وعرف نحو الكسائي والفراء بالنحو الكوفي.

ولكن قبل أي تعليق على ما عرف بالمدرستين، نسأل أنفسنا هذا السؤال: ما أسباب ظهور الخلاف؟ وهل نحن أمام مدارس حقيقية أم أمام نحاة مستقلين؟ قد تطول الإجابة عن ذينك السؤالين، ولكنّنا نحاول الإجابة عنهما تباعا.

1. أسباب ظهور الخلاف:

يمكننا أن نرجع أسباب ظهور الخلاف بين البصريين والكوفيين إلى نقاط ثلاث هي:

أ/ تعدد لهجات العربية[1]، فقد وجد النحاة المقعّدون أنفسهم أمام لهجات بل لغات عدة، فاختلفوا حتى على مستوى تحديد الأفصح من القبائل العربية، لذلك اختلفت مناهج بعض النحويين في الجمع عن مناهج آخرين. وطبيعي أن نجد اختلافا كبيرا بين تلك الطائفة من النحاة التي حدّدت أخذها من قبائل دون أخرى وبين الطائفة الأخرى التي شمل أخذها من كلّ القبائل تقريباً.

وعلى العموم فإنّ الشّكل الذي وصلت به اللغة إلى أيدي المقعّدين يعتبر عاملاً أساسياً يحمل في طياته أسباب الخلاف، فانتقال اللغة العربية من العصر الجاهلي إلى عصر صدر الإسلام سبّب بعض التّطوّر والتغيير، فقد تطورت بعض الأصوات، وتحجّرت بعض الكلمات مع الزمن، فنتج عن ذلك تباين في تأويل بعض المسائل، كاختلافهم في اسمية نعم وبئس[2] واسمية هيهات أو ظرفيتها، فقد كان أبو علي[3] يقول في هيهات: «أنا أفتي مرة بكونها اسما، سمي به الفعل، كصَه، ومَه، وأفتي مرة أخرى بكونها ظرفا على قدر ما يحضرني في الحال.»[4]

يضاف إلى ذلك أن بعض عبارات العربية (بتعدد لهجاتها) غير محكومة برتب محفوظة مطردة ونقصد بذلك أنّها خاضعة للحذف وللتقديم والتأخير وغير ذلك من الرتب غير المحفوظة. ونسوق على ذلك شاهد جواز العطف على موضع اسم إنّ قبل تمام الخبر أو عدم جواز مسألة خلافية بين أهل العربية.[5]

ب/ على أنّ هناك سببا آخر عنّ لنا من خلال قراءاتنا المتكررة والمتأنية لبعض كتب أقطاب المدرستين، ككتاب سيبويه، وكتابي معاني القرآن للأخفش وللفراء، وهو عزوف جلّ علماء البصرة في الاحتجاج والاستدلال عن أهم مصدر في نظرنا هو القرآن الكريم وقراءاته المختلفة، وبناؤهم قواعد اللغة على أبيات قليلة لشعراء مجهولين في أحايين كثيرة، في حين اعتمد الكوفيون طريقة التقعيد للشائع والنادر وحتى للشاذ على حدّ سواء، ومن ذلك القراءات المختلفة للآية الواحدة.

ج/ وهناك سبب ثالث يمكن أن يُعزى إليه ظهور الخلاف وهو غير خاف على أهل النظر والعلم، هو أنّ النحو العربي ذو طبيعة اجتهادية[6] بحيث يمكن لنحوي كالأخفش مثلا أن يخالف شيخه سيبويه في عديد القضايا التي بدا له فيها غير ما بدا لشيخه اجتهادا منه وإدلاء برأيه. من ذلك ذهابه إلى أن وزن (هِجْرَع) بمعنى الطويل و(هِبْلَع) بمعنى الأَكُول (هفعل) بزيادة الهاء فيهما، لأنّ الأوّل عنده مشتقة من الجرع أي المكان السهل، والثانية من البلع، خلافا لسيبويه الذي ذهب إلى أنّه (فعلل).[7]

ويروي في هذا أنّ المبرد (ت 285هـ) قال لتلميذه ابن كيسان (ت 299هـ) (هذا شيء خطر لي فخالفت النحويين).[8]

هذه الطبيعة الاجتهادية أدّت بالنحاة إلى تعليل كلّ مسألة يدرسونها وطبيعي أن يختلف تعليل نحوي عن تعليل آخر للقضية الواحدة. وقد قال ابن جني (ت 392هـ) «فالخلاف بين العلماء أعمّ منه بين العرب، وذلك أنّ العلماء اختلفوا في الاعتلال لما اتفقت العرب عليه، كما اختلفوا فيما اختلفت العرب فيه. وكلّ ذهب مذهبا وإن كان بعضه ضعيفا وبعضه قويا.»[9]

ولما كان القرآن يطلّ بوجهه الكريم على كلّ مسألة من مسائل النحو، وفي كل قضية من قضاياه، ظلّ هو محور تلك البحوث النحوية التي قامت في عهد مبكّر من عصور الإسلام، فما من دراسة، ولا علم قام آنذاك إلاّ وكان غرضه ومبتغاه التقرب من النص القرآني ومحاولة فهم ما يرمي إليه. ومن الطبيعي أن يكون علم النحو - وهو من أوائل العلوم العربية اللغوية نشوءا - يرمي إلى إفهام الناس لغتهم وصيانتها من كلّ تحريف يؤدي إلى خلل في الفهم.

وكان الدرس اللغويّ حين نشوئه مختلطا بين نحو وصرف، وفقه وتفسير، ويجمع ذلك إلى الأشعار والفرائد اللغوية والنوادر. وبالجملة فإنّه لم يكن هناك تخصّص في أيّ حلقة من حلقات الدرس اللغويّ المسجديّ أو تلك التي ضمتها مجالس العلماء، لذلك صعب علينا أن نعدّ الكتب التي وصلت إلينا في معاني القرآن ومجازه، في غريبه ولغاته، وفي النحو والأصوات - منذ بداية حركة التأليف - من التآليف المستقلة، ذلك لأنّا عثرنا حتى عند علماء متأخرين كالجاحظ وابن جني وابن فارس والسيوطي، على ذلك الصنف من التأليف المختلط، وإن كنّا نقر بوجود تآليف مستقلة لازمت التآليف المختلفة زمانا، وإن كانت إقامة حدود فاصلة بينها من الصعوبة بمكان. ذلك أنّ التآليف التي عرفت بأنّها نحوية أو في معاني القرآن أو غريبة، لم تخل من اختلاط ولو على نطاق ضيق.[10]

فكتاب سيبويه الذي يعرف بأنّه قرآن النحو لم يخل من تفسير ظواهر صوتية كالإمالة[11]، ومخارج الأصوات وصفاتها والإدغام وغير ذلك[12]، وكتاب معاني القرآن للأخفش يجمع إلى جانب التفسير، الأصوات والصرف والنحو والدلالة[13]، ومثلهما كتاب الفراء في المعاني.[14]

وكتب معاني القرآن هي كتب وضعها مؤلفوها لبيان معاني آي الكتاب الكريم وبيان مشكلاتها اللغوية والنحوية والصرفية، وشرح غوامض ألفاظها وغريب مفرداتها، فهي على هذا آخذة من اللغة بطرف، وآخذة من التفسير وبيان الأحكام بطرف آخر[15]، فهي متعدّدة التناول كثيرة النفع.

ولقد ألّف في معاني القرآن عدد غير قليل من علماء القرنين الثاني والثالث الهجريين، فكانت لهم في ذلك مؤلفات عدّة منها ما لم يصل إلينا ومنها ما كُتب له البقاء، وسنفصل القول فيها مركزين على معاني القرآن للأخفش والفراء.

2. التآليف المستقلة في الدراسات القرآنية، وموقع معاني القرآن من الخلاف النحويّ:

لم يتوفر لنص ما توفر للقرآن الكريم من العناية والاهتمام، ومصداق ذلك تلك الثروة المكتبية التي أُلّفت حوله، وما كتب معاني القرآن إلا نموذج واضح على خصوبة التأليف في مجال القرآن؛ والتي لا نعدم أن يكون للبصريين نصيب ليس بالقليل فيها، فكما كان لهم فضل السبق في الدراسات النحوية والتأليف فيها، كذلك وجدنا أثرهم في الدراسات القرآنية والتأليف فيها كبيرا. ولعلّ ابن عباس رضي الله عنه (ت68هـ) بكتابه «اللغات في القرآن» أوّل من بحث في مواضيع هذا العلم، وهي عناية كما

تبدو قديمة ومبكرة، فتحت الباب واسعا أمام دراسات قرآنية أخرى لم تخل من تنقيب لغويّ أو معالجة نحوية. فكان أن اتخذت بعض الكتب من لفظ القرآن مضاف إليه مصطلح من مصطلحات علوم القرآن عناوين لها.ككتاب ابن عباس في تفسير غريب القرآن.[16] ويُعدّ ابن عباس أوّل من تقدّم لتفسير غريب القرآن معتمدا كلام العرب، وألّف في هذا الباب من بعده الأصمعي وأبو عبيدة وابن سلاّم، وثعلب، وابن قتيبة[17]، ولم يصل إلينا إلا كتابا أبي عبيدة معمر بن المثنى، وابن قتيبة.

كما ظهرت دراسات قرآنية أخرى عرفت باسم «إعراب القرآن». وكان أوّل من صنّف في هذا الباب تأليفا خالصا هو أبو علي محمد بن المستنير قطرب، ثمّ أبو مروان عبد الملك بن حبيب القرطبي (ت239هـ)، فأبو حاتم السجستاني (ت248هـ) فالمبرد وثعلب وغيرهم.[18]

وكثرت كتب تفسير القرآن كتفسير الإمام الطبري (ت310هـ)، وتفسير الزمخشري (ت538هـ) المسمّى «الكشّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل»، وتفسير البيضاوي (ت691هـ) المسمّى «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» وغيرها كثير.

كما حظيت معاني القرآن بتآليف ودراسات مستقلّة، وهي كتب ألّفها أصحابها بطريقة تختلف عن طريقة المفسّرين للقرآن، ذلك أنّ كتب المعاني تفسّر الآية تفسيرا لغويا باحثة عن المقصود بواسطة النحو واللغة. وكتب معاني القرآن إنّما هي في حقيقتها «تفاسير لغوية» وكان أوّل من أملى في هذا الباب، كما تروي كتب التأريخ من الجانب البصري، يونس بن حبيب، فقد ورد أنّ له كتابين في معاني القرآن، أحدهما كبير والآخر صغير[19]، ثمّ أبو محمد اليزيدي (ت 202هـ)، ثمّ الأخفش الأوسط، وصنّف من الكوفيين الكسائي، ثمّ الفراء، فجعل أبو عبيد القاسم بن سلام كتابه في «معاني القرآن» من كتبهم.[20]

ويهمنا من هذه الكتب كتابيْ الأخفش والفراء، وسنفصل فيهما الحديث.

3. معاني القـــــرآن للأخفش:

1.3 التعريف بصاحب الكتاب:

هو أبو الحسن سعيد بن مسعدة المجاشعي البلخي البصري المشهور بالأخفش الأوسط، وقد اشترك في لقب الأخفش[21] عدد كبير من النحويين أشهرهم ثلاثة: أبو الخطاب عبد الحميد بن عبد المجيد أحد شيوخ سيبويه وهو الأخفش الكبير البصري المتوفي سنة 157هـ وأبو الحسن سعيد من مسعدة تلميذ سيبويه المتوفي سنة 215 على

الأرجح[22]، وهو المعروف بالأخفش الأوسط وهو أشهرهم. وأبو الحسن علي بن سليمان من تلامذة المبرد توفي 315هـ وهو الأخفش الأصغر. وقد عدّ السيوطي أحد عشر نحويا من الخفش.[23]

والأخفش الأوسط أسن من سيبويه، ولد قبله ومات بعده، ولكنّه تتلمذ له وكان الراوي لكتابه[24] والمنافح عنه يوم استفزه الكسائي في المسألة الزنبورية[25]، كما تتلمذ الأخفش لغيره كعيسى بن عمر الثقفي ويونس بن حبيب وغيرهما. وأما تلاميذه فنذكر منهم أبا عثمان المازني، وأبا عمر الجرمي، وأبا حاتم السجستاني الذي طعن في شيخه الأخفش وفي علمه[26]، ثمّ الكسائي الذي أُعجب بصاحبها حينما جاءه عقب المسألة الزنبورية يسأله في النّحو فلا يجيب، فاتّخذه صديقا وقرّبه إليه وطلب منه أن يؤدّب له أولاده ففعل.[27]

أمّا مصنّفات أبي الحسن فما أكثرها وما أقلّ ما وصل إلينا منها[28]، فمما أتت عليه عوادي الزمن كتاب «المسائل الكبير»، و«المسائل الصغير»، وكتاب «الأوسط في النحو» وفَّق فيه بين الكتابين السابقين، ثم كتاب «الاشتقاق»، وكتاب «صفات الغنم وألوانها وعلاجها وأسنانها»، وكتاب «غريب الحديث» وغيرها. ومن الكتب التي وصلت إلينا نجد كتاب «القوافي» الذي ورد ذكره منفصلا عن كتاب «العروض»، ثم كتاب «معاني القرآن» الذي نخصه بعناية خاصة فيما يأتي من هذا البحث.

2.3 التعريف بالكتاب:

صنّف الأخفش كتابه في المعاني إجابة لرغبة الكسائي، يقول الأخفش: «فلما اتّصلت الأيام بالاجتماع سألني أن أؤلف له كتابا في معاني القرآن، فألّفت كتابي في المعاني، فجعله إماما لنفسه وعمل عليه كتابا في المعاني وعمل الفراء كتابه في المعاني عليهما.»[29]

وكتاب الأخفش في المعاني ذو أهمية بالغة، ذلك أنّ متناوله هو الذكر الحكيم، وهو مرجع لأهل اللغة والنحو والصرف وأهل التفسير، وهو مصدر اقتبس منه العلماء السابقون فأثروا به مؤلفاتهم، فقد عرفنا استفادة الكسائي منه وكذلك الفراء. كما أفاد منه ثعلب والفارسي وابن جني والزمخشري وابن منظور (ت711هـ) وغيرهم في كتبهم.[30]

سلك الأخفش في كتابه هذا منهجا قويما جعل الكتاب أحسن ما ألّف أولئك الأقدمون من حيث التنظيم، فقد عالج فيه آيات الذكر الحكيم التي رأى فيها مشكلة لغوية أو غيرها، وتجاوز الآيات التي لا إشكال فيها.

ونهج في دراسته هذه ترتيب الآيات في السورة، والتزم بترتيب السور في القرآن. وكان في معانيه نحويا أكثر منه مفسرا فقيها.

لقد نظر أبو الحسن في آيات القرآن نظرة شاملة، بدأها بالنظرة الصوتية من وصف لمخارج الحروف[31]، وبحث في الإشمام والروم والوصل وغيرها.[32] وينظر في المسائل الصرفية كبناء الكلمة وأوزان الأسماء[33]، كما تعرض لدلالات الألفاظ، فمن ذلك دراسته للأضداد[34]، ثم الدراسة النحوية، وهي الغالبة على الكتاب، والتي كان يطيل فيها الحديث كما أسلفنا.

والكتاب أحيانا هو صورة للنحـــو البصري، وأحيانا يمثل ثورة على آراء شيخه سيبويه،[35] وأحيانا أخرى يستقل فيه برأي.[36]

4. معاني القـــــــرآن للفراء:

1.4 التعريف بصاحب الكتاب:

هو أبو زكرياء يحي بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الكوفي، ولقبه الفراء،[37] لأنّه كان يفري الكلام فريا أي يحسن تقطيعه وتفصيله، فهو صيغة فعّال من الفري.

ولد الفراء بالكوفة سنة 144هـ وشـــــبّ بها وتربي على شيوخها، ومن أشهر شيوخه فيها الكسائي، ويقال إنّه كان يلازم كتاب سيبويه، ثم استقر ببغداد.

ولقد بلغ منزلة عظمى بين الكوفيين حتى ألبسوه ثوب الإمارة فيهم، فقيل: «النحو الفراء، والفراء أمير المؤمنين في النحو.»[38] وقال عنه ثعلب: «لولا الفراء لسقطت العربية لأنّها كانت تتنازع ويدعيها كل من أراد.»[39] ومن تعلّق الفراء بالنحو أن قال: «أموت وفي نفسي من 'حتى' شيء، لأنّها تجلب الحركات الثلاث.»[40] وكانت وفاته وهو في طريق عودته من مكة سنة سبع ومئتين (207هـ)،[41] وترك عددا غير قليل من الكتب[42] منها؛ الجمع والتثنية في القرآن، والحدود، والفاخر في الأمثال واللغات، والمشكل الصغير، والمشكل الكبير، ويبدو أنّه مشكل القرآن، وكتاب المقصور والممدود، ثم كتاب معاني القرآن وهو الكتاب الثاني في دراستنا هذه.

2.4 التعريف بالكتاب:

سبق الفراء إلى التأليف في المعاني – كما ذكرنا – كلٌّ من الأخفش والكسائي، إلاّ أنّ ذلك لم يُثن القَرَأَةَ عن التماسه والانتفاع بفوائده الجمّة. فهو كتاب لم يعمل قبله ولا بعده مثله، ولم يتهيأ لأحد من الناس جميعا أن يزيد عليه شيئا.[43]

وكان سبب تأليفه – كما قال ثعلب – أن عمر بن بكير (صاحب الحسن بن سهل)،[44] كتب إلى الفراء: «إنّ الأمير الحسن بن سهل لا يزال يسألني عن أشياء من القرآن لا يحضرني جواب عنها، فإن رأيت أن تجمع لي أصولا، أو تجعل في ذلك كتابا نرجع إليه فعلت.»[45] وكان الفراء قد أملى كتابه هذا إملاء رواه عنه أبو عبد الله محمد الجهم السِّمَّريّ (ت 277هـ) وقال في أوّله: «هذا كتاب فيه معاني القرآن، أملاه علينا أبو زكريا يحي بن زياد الفراء – يرحمه الله – عن حفظه من غير نسخة، في مجالسه أوّل النّهار من أيام الثلاثاوات والجُمَع في شهر رمضان، وما بعده من سنة اثنتين، وفي شهور ثلاثة وشهور من سنة أربع ومئتين.»[46]

ويمثل كتاب الفراء النحو الكوفي، ذلك لأنّه الكتاب الوحيد الذي بلغنا من نحو هؤلاء، جامع لأصوله. وهو كتاب إذا ما قورن حجمه بحجم كتاب الأخفش، فإنّه كبير جدا، ويُفسّر ذلك جنوح الفراء في أحايين كثيرة إلى ذكر تفاصيل الآية بدءا من سبب النزول إلى النسخ أو ذكر وجوه الإعراب أو القراءات المختلفة للآية، خلافا للأخفش الذي يختصر كثيرا من الجزئيات وقد يحذف الآيات الكثيرة فلا يتناولها، لذلك جاء كتاب الأخفش في سبع وثمانين ومئة ورقة[47]، وجاء كتاب الفراء في ألف ورقة.[48]

وأما المفارقة التي يمكن تسجيلها من كتابي الرجلين هي أنّ معاني الأخفش لا يمثل النحو البصري، لأنّ كتاب سيبويه حوى آراء البصريين. لكن معاني الفراء هو الكتاب الكوفي الوحيد الذي يحمل خلاصة النحو الكوفي خاصة وأنّ كتب الكسائي لم تصل إلينا، وبذلك لا يمكننا الحكم على الفراء بأنّه لم يلتزم آراء أهل الكوفة أو منهجهم، الأمر الذي يلزم الأخفش بآراء البصريين وهو ما لم يحدث.[49]

على أنّ الفراء كثير الالتفات في كتابه إلى القراءات القرآنية المختلفة وكثير النّقل عن شيخه الكسائي، ويتميز أيضا بالإشارة إلى الأحكام الشرعية، فجاء كتابه غزيرا من حيث النحو والصرف ومن حيث الفقه والدين.

5. المسائـــــــل الخلافية:

يجد الباحث في كتابي معاني القرآن للأخفش ومعاني القرآن للفراء صعوبة في عزو رأي نحوي ما إلى أحد المؤلّفين من جهة أنّ الرجل منهما لا يكتفي برأي عرف به قومه وأهل مذهبه، بل يتعدى ذلك إلى القول – مثلا – وإن شئت رفعته على كذا أو نصبته على إضمار كذا[50]، ويعود ذلك في رأينا إلى أن غرض الرجلين كان هو الوصول إلى الحكم الشرعي الذي في الآية أو الأمر أو النهي الذي تحتويه، أو إثبات حقيقة دينية، كلّ ذلك من خلال التماس ما تؤديه الكلمات وفق تراتبها في شكل معين، فإن كان

النحويّ المفسّر (الأخفش أو الفراء) يودّ إثبات حقيقة معروفة يرى أنّ الآية تشير إليها، فإنّه يُقدّم وجوه الآية وفقا لما تقتضيه تلك الحقيقة، وأما إن ازدوجت أمامه إمكانية تحقّق أمرين قد تدل عليهما الآية، فإنّه يبسط لك أكثر من وجه إعرابي يحتمل كلّ وجه معنى مخالفا لمعنى الوجه الأوّل، وسيتضح لك ذلك من خلال ما سنعرضه من مسائل خلافية مستنبطة من الكتابين، وارتأينا أن تكون دراسة تطبيقية نردف ونفرد بها الدراسة النظرية.

1.5 مسألة خلافية في إعراب المبهمات:

هل يكون للحروف المقطّعة التي في أوائل السور محل من الإعراب؟

يرى الأخفش أنّ الحروف المقطّعة التي في أوائل السّور من مثل (ألم، وألمص، وألمر وغيرها)، قد أسكنت لأنّ الكلام ليس بمدرج[51]، وهو يقصد أنّ كل حرف منها يلفظ مستقلا لذلك يُؤتى به ساكنا. «إلاّ أنّ قوما قد نصبوا (يس) و(طه) و(حم) وهو كثير في كلام العرب، وذلك أنّهم جعلوها أسماء كالأسماء الأعجمية 'هابيل وقابيل'»[52] ولم ينصبوا شيئا غير التي كقابيل وهابيل من مثل ياسين وطاسين، «لأنّ 'ألم' و'طسم' و'كهيعص' ليست مثل شيء من الأسماء، وإنمّا هي حروف مقطّعة. وقال ﴿**ألم اللهُ لا إلاهَ إلّا هُو**﴾[53] فالميم مفتوحة؛ لأنّها لقيها حرف ساكن فلم يكن من حركتها بُدّ.»[54]

ثمّ يُعْقِب ذلك بقوله «وإن شئت قلت (ألم) حروف منفصل بعضها من بعض لأنّه ليس فيها حرف عطف، وهي أيضا منفصلة مما بعدها. فالأصل فيها أن تقول (ألم ا الله) فتقطع ألف (ا لله) إذا كان ما قبلها منفصلا منه، كما قرأ القراء ﴿**نون والقَلَم**﴾[55] فبيّنوا النون لأنّها منفصلة.»[56] وفي سورة الأعراف وقف الأخفش عند قـــــوله تعالى ﴿**كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ**﴾[57] فقال: «على الابتداء»[58] أي مرفوعة على أنّها مبتدأ.

أما الفراء فيذهب في ذلك مذهبا مخالفا فيرى أنّ تلك الحروف لها محل من الإعراب. ففي قوله تعالى: ﴿**ألمص كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْك**﴾[59]، يقول: «أرأيت ما يأتي بعد حروف الهجاء مرفوعا مثل قوله تعالى: ﴿**ألمص كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْك**﴾ ومثل قوله: ﴿**ألم تَنْزيلُ الكِتابِ**﴾[60]، وقوله عز وجل ﴿**ألر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُه**﴾[61]، وأشبه ذلك، بم رفعتَ الكتاب في هؤلاء الأحرف؟ قلت: رفعتُه بحروف الهجاء، التي قبله، كأنك قلت الألف واللام والميم والصاد من حروف المقطع كتاب أنزل إليك مجموعا.»[62]

وينقل رأي شيخه الكسائي في هذه المسألة فيقول: «وقد قال الكسائي: رفعت ﴿**كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْك**﴾ وأشباهه من المرفوع بعد الهجاء بإضمار هذا أو ذلك. وهو وجه، وكأنّه إذا أضمر هذا أو ذلك أضمر لحروف الهجاء ما يرفعها قبلها، لأنّها لا تكون إلا ولها

موضع.»[63]

والحق أنّ هذه الحروف المقطَّعة مجهولة المعنى أو على الأقل مختلف حولها[64]، لذلك لا يمكن القول بأنّها تقع من الإعراب موقع مفرد، لأنّ إعراب لفظ ما أو جملة ما، يقتضى أن يفهم مبناها أولا ومعناها ثانيا. وهذه الحروف هي من المبهمات فلا صيغة معروفة لها، وأما كنهها فهو ضامر، وقف المفسرون منها مواقف شتى، فمنهم من تحلل من تفسيرها خوفا من أن يشط بها عن مراد الله، فاكتفى بالقول (الله أعلم).[65]

ومنهم من ذهب إلى القول بأنّها مظاهر إعجاز يختص بها القرآن الكريم[66]، ومنهم من لم يتحرج في إعطاء مدلول لها، فذهب بعضهم إلى أنّها أسماء الله تعالى، والبعض يرى بأنّها أسماء للقرآن أو أسماء للسور، وقيل بل هي حروف قسم من الله. [67]

وكان الزمخشري قد أوضح أنّ هذه الحروف معربة لا مبنية.[68] أمّا إذا عدنا إلى ما جاء به كلّ من الأخفش والفراء، فإنّنا نجدهما يختلفان حول عدّ هذه الحروف ذات معنى، وبالتالي فإنّها تستحق محلا من الإعراب؛ فالأخفش يرى بأنّها حروف منفصل بعضها عن بعض ولا يجرؤ على إعرابها، أما الفراء فإنّه تجاوز بها حدّ الحرفية فأعطاها محلا من الإعراب بقوله (ألمص) مبتدأ رفعت به الكتاب في آية الأعراف، وقاس على ذلك بقية الآيات التي تشبهها، فهو يرى أنّ (ألمص، وألم، وألر) ونحوها حروف اكتفي بذكرها عن ذكر باقي حروف المعجم، أي كأنّ الله تعالى أراد أن يقول: الألف واللام والميم والصاد وغيرها من حروف المعجم كتاب مؤلف منها أنزلناه إليك.

وكان الأجدر بهؤلاء الذين أبوا إلا أن يفسروا هذه الحروف ظنّا منهم أنّ الله تعالى لا يذكر شيئا لا معنى له – وذلك عن الصواب – أن يكتفوا بالقول: إنّها سرّ هذا القرآن أو مظهر من مظاهر إعجازه كما ذكر كثير من المفسرين، ولو فعلوا ذلك لكان اعترافا منهم بأنّهم يجهلون معنى هذه الحروف، ومن ثمّ لا يكون لها محلّ من الإعراب. وإن كان الله تعالى لا يذكر شيئا إلا وله معنى وقصد وغاية إلا أنّ ذلك المعنى يبقى بعيد المتناول، لذلك اختلفت التأويلات والتفسيرات أيما اختلاف حول هذا النوع من الخطاب الإلهي.[69]

والأخفش في هذه المسألة مطبق لأمر قطعه على نفسه وهو «أنّ الاسم عنده هو ما جاز فيه نفعني وضربني»[70]، يريد أنّه ما جاز أن يخبر عنه. فالحروف المقطعة هاهنا لا تدخل في باب الاسمية حتى تكون مخبرا عنها على حدّ تعريفه للاسم الذي يصح الابتداء به.

والأخفش يمثل رأي شيخه سيبويه في المسألة، فقد عقد سيبويه في كتابه بابا سمّاه (باب أسماء السور) وكأنّي بالأخفش نقل عن سيبويه رأيه كاملا.[71]

والفراء على غير عادته تراه قد أسرف وتأوّل الآية وإنّما فعل ذلك أيضا احتذاء بشيخه الكسائي الذي نفى أن تكون تلك الحروف غير واقعة من الجملة موقعا ما.[72]

إنّ اختلاف الرجلين في هذه المسألة ليس من قبيل الخلاف المقصود في ذاته إنما هو خلاف التوجيه، سببه نظرة كلّ من الرجلين للمسألة الواحدة اعتماداً على معارفَ ومضانَّ كلّ منهما الشخصية، وبالاعتماد على دعم الشيوخ لهما.

إلاّ أنّ الجدير بالذكر هو أنّ الكوفيين ممثلين في الفراء هنا والذين ينسب إليهم في غالب الأحيان الانسجام في الأصول، اتبعوا نهج من يحاول التأويل والتفسير والتقدير على غير عادتهم خلافا للبصريين ممثلين هنا بالأخفش وشيخه سيبويه الذين اعتمدوا النقل دون العقل في هذه المسألة.

2.5 مسألة خلافية في أسلوب الاشتغال:

القول في ناصب الاسم المشغول عنه:

قال أبو البركات بن الانباري (ت 577هـ): «ذهب الكوفيون إلى أنّ قولهم (زيدا ضربته) منصوب بالفعل الواقع على الهاء، وذهب البصريون إلى أنّه منصوب بفعل مقدّر، والتقدير فيه (ضربت زيدا ضربته).»[73]

واحتجّ كلا الفريقين لرأيهما على أساس معين، فذهب البصريون إلى أنّ النّصب فيه بفعل مقدّر دلّ عليه المذكور «لأنّ ضربت يتعدى إلى مفعول واحد، وقد استوفاه وهو الهاء، فلم يبق له سبيل على نصب زيد، فوجب أن يُقدّر له ما ينصبه.»[74]

وأما الكوفيون فقالوا بالنّصب فيه بالفعل الذي بعد الاسم وليس بفعل مقدّر لأنّ الهاء هي زيد في المعنى، وإنّما ذكرت للبيان، وإلاّ فهو في المعنى كقولك (زيدا ضربت)، ولو قال ذلك لم يكن فيه خلاف أنّ النصب بضربت فكذلك إذا أتى بالهاء على جهة البيان والتوكيد.[75]

ونحن إذا عدنا إلى رأي الأخفش وجدناه لا يمثل في هذه المسألة المذهب البصري، فحين أورد قوله تعالى: ﴿**وإيايَ فارْهَبُونِ**﴾[76] و﴿**إيايَ فاتَّقُونِ**﴾[77] قال: «فقال: وإياي، وقد شغلت الفعل بالاسم المضمر الذي بعده الفعل.»[78] ويقول سيبويه: «وإن شئت قلت: زيدا ضربته، وإنما نصبه على إضمار فعل هذا يفسره، كأنّك قلت: ضربت زيدا ضربته.»[79]

والفراء حين أورد قوله تعالى: ﴿**والأَنْعامَ خَلَقَها لَكُمْ**﴾[80]، قال: «نصبت الأنعام بخلقها لما كانت في الأنعام واو.»[81]

وهو ينكر أن يكون الاسم المشغول عنه منصوبا بفعل يسبقه يقدر له، فيقول: «وقال بعض النحويين: (زيدا ضربته)، فنصبه بالفعل كما تنصبه إذا كان قبله كلام ولا يجوز ذلك إلاّ أن تنوي التكرير، كأنّه نوى أن يوقع الضرب على زيد قبل أن يقع على الهاء، فلما تأخر الفعل أدخل الهاء للتكرير»[82]، أي لا حاجة لإضمار الفعل قبل الاسم المشغول عنه.

وهذا الذي تنازع فيه البصريون ورائدهم في ذلك سيبويه مع الكوفيين ومنهم الفراء، هو ما يدعى الاشتغال، وضابطه أن يتقدم اسم ويتأخر عنه فعل، عامل في ضميره، ويكون ذلك الفعل بحيث لو فرّغ من ذلك المعمول وسلّط على الاسم الأول لنصب.[83]

لكن الأخفش البصري حين تحدثه عن الاسم المتقدم على الفعل المذكور، أتى بأمثلة الفعل فيها فعل طلب (ارهبون)، و(اتقون)، وهذه الحالة يترجح فيها النصب ولا يجوز الرفع. وهو خلافا لسيبويه لم يقدر لضمير النصب المنفصل فعلا نصبه، وإنما قال: «وقد شغلت الفعل بالاسم المضمر الذي بعد الفعل.»[84]

ولهذا فإنّ هذه المسألة وإن اختلف فيها سيبويه مع الكوفيين، إلاّ أنّنا لم نجد في كلام الأخفش ما يمكن أن يبنى عليه هذا الاختلاف.

3.5 مسألة خلافية في الفصل بين المتضايفين:

هل يجوز الفصل بين المضاف والمضاف إليه بغير الظرف والجار والمجرور؟

في المسألة الستين من مسائل الخلاف التي أوردها ابن الانباري في كتابه، يُنسب إلى الكوفيين جواز الفصل بين المتضايفين لضرورة الشعر، ويُنسب إلى البصريين عدم جواز الفصل بينهما بغير الظرف والجار والمجرور. لكنّنا وبتصفحنا لكتابي (معاني القرآن) للأخفش والفراء نجد الأخفش حينما أورد قوله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكائِهِمْ**﴾[85]، يقول (لأن الشركاء زينوا)[86]، أي زيّن الشركاء للمشركين قتل أولادهم، فلا فصل إذن فيما يرى الأخفش، ويدعم ذلك بقوله تعالى ﴿**فَلا تحْسِبَنَّ اللهَ مخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَه**﴾[87]، وعلّق على ذلك بقوله: «فأضاف إلى الأول ونصب الآخر على الفعل، ولا يحسن أن يضيف إلى الآخر لأنّه يفرق بين المضاف والمضاف إليه، وهذا لا يحسن، فلابدّ من إضافته لأنّه قد ألقى الألف»[88]، وهو يقصد إسقاط الألف المنونة التي في 'مخلف'.

والفراء حينما أورد آية الأنعام قال: «وقرأ بعضهم: ﴿**وكَذلِكَ زُيِّنَ لِكَثيرٍ مِنَ المشْركينَ قتْلُ أَوْلادِهِمْ**﴾ فيرفع القتل إذا لم يسم قاتله. ويرفع الشركاء بفعل ينويه كأنّه

قال: زيّنه لهم شركاؤهم.»

ولم يكتف الفراء بهذا الرأي بل حاول أن يعرض إلى قراءات الآية يفسرها ويعلل اختلاف الإعراب فيها، فيقول: (وفي بعض مصاحف أهل الشام (شركايهم) فإن تكن مثبتة – يعني الهمزة – فينبغي أن يقرأ (زُيِّنَ)، تكون الشركاء هم الأولاد، لأنّهم منهم في النسب والميراث. فإن كانوا يقرأون (زَين) فلست أعرف جهتها، إلا أن يكونوا فيها آخذين بلغة قوم يقولون: أتيتها عِشايًا، فهذا وجه أن يكونوا قالوا: زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم. وإن شئت جعلت (زين) إذا فتحته فعلا لإبليس تم تخفيض الشركاء بإتباع الأولاد. وليس قول من قال: إنما أرادوا مثل قول الشاعر: زج القلوص أبي مزاده[89] بشيء وهذا مما كان يقوله نحويو أهل الحجاز ولم نجد مثله في العربية.[90]

وفي قوله تعالى: ﴿**فَلا تحْسِبنَّ اللهَ مخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَه**﴾[91] يقول: «أضفت مخلف إلى الوعد ونصبت الرسل على التأويل»[92] ويعلل عدم الفصل بين المتضايفين بكون الاسم الجامد لا يعمل في شيئين (الجر والنصب أو الرفع) كما الفعل (هو كاسي عبد الله الثوب). ولكن إذا اعترض بين خافض وما خفض صفة[93] جازت إضافته مثل هذا ضارب في الدار أخيه. ونقل زعم الكسائي أنّهم يؤثرون في مثل هذا النّصب معتمدين على قوله تعالى: ﴿**فَلاَ تَحْسِبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسَلَهُ**﴾ وهي قراءة، وقوله: ﴿**زُيِّنَ لِكَثيرٍ مِنَ المشْركينَ قتْلَ أَوْلادِهِمْ شُركائِهِمْ**﴾ وقول الشاعر: زج القلوص أبي مزاده، وليس ذلك بشيء وإنّما الصواب في البيت: زج القلوص أبو مزاده.[94]

إنّ ما يمكن قوله في هذا المقام هو أنّ الأخفش اقتنع بما ذهب إليه شيخه سيبويه إذ يمنع الفصل بين المتضايفين إلا بظرف وجار ومجرور، وذلك في الضرورة الشعرية فقط حيث يقول: «ولا يجوز يا سارق الليلة أهل الدار إلا في شعر كراهية أن يفصلوا بين الجارّ والمجرور.»[95]

وبالمقابل لا نكاد نعثر على رأي يمثل مذهب الكوفيين عدا الفراء، بحيث يعرض لنا مجموعة من الآراء تتراوح بين الفصل وعدم الفصل بين المتضايفين.

إنّ ذهاب الأخفش والفراء هذا المذهب يُعدّ ردّاً لقراءة ابن عامر المشهورة: ﴿ **زُيِّنَ لِكَثيرٍ مِنَ المشْركينَ قتْلَ أَوْلادِهِمْ شُركائِهِمْ**﴾ لظنّهم أنّه استنبطها من كتابة بعض المصاحف على حدّ تعبير الفراء.[96] «ومعناها: زين لكثير من المشركين قتل شركائهم لأولادهم، أي استحسنوا ما توسوسه شياطين الإنس من سدنة الأصنام.»[97] وردهم الفصل بين المتضايفين رغم وجود كثير من الأشعار وآية الأنعام، وآية إبراهيم ضعيف من جهتين: الأولى أنّ ورود ذلك في قراءة قرآنية لأحد القراء السبعة المشهورين كفيل

وحده بأن يجعلنا نسلم بأنّ هذا النوع من الفصل جائز، والثانية، أنّ وروده في الشعر ولو ضرورة دليل آخر على أنّ العرب تكلمت به، عن سليقة تضبطها رتب محفوظة وأخرى غير محفوظة تصح لصحتها وتعتل لاعتلالها. والقول بأنّ أمرا ما جائز في الشعر وغير جائز في القرآن الكريم ضرب من الخلط بين مستويين صوابيين مختلفين من حيث الرفعة والمكانة، يضاف إلى ذلك تبعات الانغماس في القياس الآلي والتعليل البعيد عن واقع اللغة.

4.5 مسألة خلافية في أسلوب الشرط:

هل تحذف الفاء الواقعة في جواب الشرط؟

من المسائل النحوية التي انفرد الأخفش برأي فيها مسألة حذف الفاء الواقعة بجواب الشرط، فقد وقف على الآية الكريمة: ﴿**كتبَ عَلَيْكُمْ إذا حضَرَ أحَدَكمْ الموتُ إنْ تركَ خيَراً الوصيَةُ للوالدَيْن والأقْرَبينَ**﴾[98]، فخالف القاعدة المشهورة، ومفادها إنّ الجملة الاسمية إذا وقعت جوابا للشرط وجب ربطها بالفاء، وقد تنوب عنها إذا الفجائية.[99] والحق أنّ البصريين أنفسهم لما عورضت قاعدتهم هذه بهذه الآية وبقوله تعالى: ﴿**والذينَ إذا أصابهُمْ البَغيُ همْ ينتَصِرون**﴾[100]، أوّلوا الشاهد وقالوا إنّ (إذا) فيها ليست شرطية وإنما هي ظرف زمان لخبر المبتدأ بعدها.[101]

أما الأخفش فإنّه يرى أنّ (إن ترك خيرا) جوابه (الوصية)، وتحذف الفاء، أي فالوصية للوالدين[102]، ويرى في آية الشورى أنّ إذا شرطية والمعنى على حذف الفاء منها أيضا. أما الفراء فالوصية عنده في الآية مرفوعة على أنّها اسم ما لم يسمّ فاعله أي نائب فاعل للفعل (كُتب) أو على اعتبار أنّ معنى كتب عليكم (قيل لكم) فتكون مرفوعة على الابتداء. يقول: «الوصية مرفوعة بكتب، وإن شئت جعلت كتب في مذهب قيل، فترفع الوصية باللام في (الوالدين.»[103]

فلئن كان الفراء لم يبد رأيه صراحة في قضية الشرط إلاّ أنّه يستشف من كلامه (الوصية مرفوعة بكتب) ووجهه كما قال العكبري حذف جواب الشرط المقترن بالفاء، وإنما حذفت مع، وهذا التعليل ما اضطرهم إليه أنهم لم يستطيعوا أن ينعتوا (إن) بأنها ليست شرطية كصنيعهم مع (إذا) في آية الشورى، فالتقدير عندهم: «كُتب عليكم إذا حضر أحدَكم الموتُ الوصيةُ للوالدين إن ترك خيرا، فليوص»، وعلى كل حال فإنّ البصريين قد أسرفوا التأويل والتمحّل في هاتين الآيتين كي توافق قاعدتهم الموضوعة. والأخفش إن لم يشبه البصريين في الرأي المقدم حول هذه المسألة إلاّ أنّه يشبههم كثيرا في الإسراف والتأويل والتمحّل. هذا ونسجل في هذه المسألة خروجه من

دائرة البصريين النحوية، فهو يخالف سيبويه الذي سأل الخليل عن قوله: إن تأتني أنا كريم، فقال: لا يكون هذا إلاّ أن يضطر شاعر، من قبل أنّ أنا كريم يكون كلاما مبتدأ، والفاء وإذا لا يكونان إلا معلقتين بما قبلهما فكرهوا أن يكون هذا جوابا حيث لم يشبه الفاء وقد قاله شاعر مضطر، يشبهه بما يتكلم به من الفعل قال:[104]

من يفعل الحسنات الله يشكرها ✤ والشر بالشر عند الله مثلان

ومعنى هذا أنّ سيبويه كما الخليل يمنع حذف الفاء من جواب الشرط إلاّ أن يضطر شاعر.

والفراء كما الزمخشري[105] يذهب مذهب أهل البصرة في حذف جواب الشرط كلّه في هذه الآية متبعا القاعدة المطردة عند النحاة خلافا للأخفش.

ونحن إذ نختلف مع الأخفش ونقول بعدم جواز الفاء من جواب الشرط، نذهب إلى أن للفاء دورا أساسيا وحاسما في جملة الشرط، إذ أن جملة الشرط شطران متلازمان، الثاني منهما متوقف على حدوث الأوّل أو تعطّله. فاقتران الفاء بالجواب يضمن لنا الارتباط بين ذينك الشطرين ولولاهما لكانت جملة الجواب غريبة عن جملة الشرط، واقترانها بالجملة الاسمية التي تدل على تحقق النسبة وثبوتها ودوامها ضروري[106]، ذلك أن فعل الشرط محتمل الوقوع، وجوابه (الجملة الاسمية) متحقق الوقوع، فإن لم يربط بينهما برابط مسوغ صار لزاما أن يقع الجواب حتى وإن لم يتحقق الشرط، وهذا مناف لمقصد الشرط ودلالته.

فالوصية للوالدين ستتحقق حتما حتى وإن لم يترك المتوفى خيرا (شيئا) وهذا غير مستقيم مع وجود الفاء.

5. 5 مسألة خلافية في أسلوب النفي والاستثناء:

هل تكون إلاّ بمعنى الواو؟

ذهب الأخفش إلى القول بأنّ إلاّ تكون بمعنى الواو، ويظهر ذلك عند تفسيره قوله تعالى: ﴿**لِئَلّا يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَيْكُمْ حُجّةٌ إلّا الذينَ ظلَموا**﴾[107] يقول: «فهذا بمعنى لكن، وزعم يونس أنّه سمع أعرابيا فصيحا يقول: ما أشتكي إلا خيرا. وذلك أنّه قيل له كيف تجدك؟ فتكون بمعنى الواو»[108] كأنّه قال ما أشتكي وخيرا أشتكي. واحتج لمذهبه بقول الشاعر:[109]

وأَرَى لهَا دارًا بأغْدِرةِ الس ✤ بِدَانِ لم يَدْرُسْ لهَا رَسْمُ

إلاّ رمادًا هامِداً دَفعَتْ ✤ عنه الرياحَ خوالدٌ سُحُمُ

أراد: «أرى لها داراً ورمادا.»[110]

وخالف الفراء الأخفش إذ يرى أنّ (إلاّ) لا تكون بمعنى الواو فقال عند تفسيره قوله تعالى: ﴿**إِنّي لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ إِلاّ مَنْ ظَلَمَ ثمّ بَدّلَ حُسْناً بَعْدَ سُوءٍ**﴾[111]: «ثم استثنى فقال: إلا من ظلم فإنّ هذا لا يخاف، وقد قال بعض النحويين إنّ إلاّ في اللغة بمنزلة الواو، وإنّما معنى هذه الآية: لا يخاف لدي المرسلون ولا من ظلم ثم بدّل حسنا، وجعله مثل قول الله: ﴿**لِئَلّاَ يَكُونَ لِلنّاسِ عَلَيْكُمْ حُجّةٌ إِلَّا الذِينَ ظَلَمُوا**﴾ أي ولا الذين ظلموا. ولم أجد العربية تحتمل ما قالوا.... إنّما الاستثناء أن يخرج الاسم الذي بعد إلاّ من معنى الأسماء قبلها.»[112]

بعد عرضنا لرأي كلّ من الأخفش والفراء في المسألة، تبين لنا أنّ الأخفش في هذه المسألة تبنّى ما ذهب إليه شيوخه البصريون، فها هو الخليل بن أحمد قبله يقرر بأنّ (إلا) تكون بمعنى الواو، يقول: (وإلاّ تكون بمعنى الواو مثل قول الشاعر:[113]

وكل أخ مفارقه أخوه ✤ لعمر أبيك إلا الفرقدان

معناه: والفرقدان يفترقان. ومثله قول الله تبارك وتعالى: ﴿**إِلَّا الذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي**﴾[114] معناه: والذين ظلموا فلا تخشوهم.[115]

هذه مسألة معكوسة إذا اعتبرنا ما جاء في الإنصاف حولها. ذلك أنّ ابن الأنباري في الإنصاف ذكر أنّ الكوفيين يذهبون إلى أنّ (إلاّ) تكون بمعنى الواو ولم يستثن الفراء مع أنّه لا يرى رأيهم – كما سنبيّن – ويذكر أنّ البصريين يرون أنّها لا تكون كذلك، ولم يستثن الأخفش منهم حين قال: «ذهب الكوفيون إلى أنّ (إلا) تكون بمعنى الواو، وذهب البصريون إلى أنّها لا تكون بمعنى الواو.»[116]

أمّا إذا رجعنا بالمسألة إلى مظانّها؛ كتابي معاني القرآن للأخفش والفراء، فإنّا واجدون الأخفش عن مذهب شيخيه الخليل وسيبويه غير حائد[117] ولم يكن الفراء بدعا، فقد حذا حذو شيوخه في هذه المسألة.[118] فأنى يحق لابن الأنباري أن ينسب للبصريين رأيا يخالف رأي الخليل وسيبويه والأخفش، وينسب للكوفيين غير ما رآه الفراء والكسائي؟

وإذا تصفّحنا كتب التفسير وجدنا آية البقرة تحتمل ما ذهب إليه الفراء، إذ لو كان معنى قوله {إلا الذين ظلموا} ولا الذين ظلموا، لوجب أن يشرك الذين ظلموا منهم مع (الناس) فصاروا جميعهم لا حجة لهم على رسول الله، ولما كان في ذكر قوله

تعالى بعد ذلك {إلا الذين ظلموا} إلا التلبيس الذي يتعالى عن أن يضاف إليه، أو يوصف به،[119] وإنّما معنى الآية لا يكون لأحد عليكم كلام إلا كلام هؤلاء المعاندين الظلمة بدليل قوله بعد ذلك {فلا تخشوهم واخشوني} أي لا تخافوا جدالهم في التولي إلى القبلة.[120]

خاتمـــــــــة:

بعد عرضنا لهذه المسائل جديـــــــــــر بنا أن نلتمس بعض الفوائد والفرائد والملاحظات التي تقدّمها لنا كلّ مسألة:

1. ينسب إلى الكوفيين التثبت وعدم الإكثار من التأويلات، والتقديرات والتخريجات المتمحلة، غير أنّه قد يعن لهم غير ذلك، فتراهم يقدرّون من غير حاجة ويؤوّلون من غير داع كما فعل الفراء في مسألة (هل يكون للحروف المقطّعة محلّ من الإعراب)؟

2. قد يؤدي البحث عن العلل إلى الابتعاد عن دائرة اللغة والانغماس في المنطق وإلى اختراع بعض الأبواب التي ما زادت النحو إلا تشعبا وتعقيدا كالذي نجده في مسألة الاشتغال ومسألة التنازع وغيرهما واللتان كانتا نتيجة من نتائج تمسك النحاة بنظرية العامل وإيمانهم العميق بها.

3. لا يمثل الأخفش مذهب البصرة في كل ما أورده، ولا الفراء مذهب الكوفة دائما، فتجد الأخفش تارة ينهج منهج الكوفيين، أو قل يتبعه الكوفيون كما في مسألة (من الجارة تزاد في الإيجاب)، وتارة تجده ينفرد برأي كما في مسألة (هل تحذف الفاء من جواب الشرط)؟ كما أنّ الفراء يتبع سيبويه في عديد المسائل كما فعل في مسألة (هل تجيء إلاّ بمعنى الواو)؟ وأحيانا كثيرة نجد الرجلين على قول واحد كما هو الشأن في مسألة الفصل بين المتضايفين.

4. قد يعرض أحد الرجلين في كتابه مجموعة من الآراء المختلفة في مسألة واحدة، ثم لا يقر على أحدها قرارا يمكن معه أن تضيف إليه رأي من الآراء.

وعلى أيّ حال فإنّ الأخفش والفراء قطبان في النحو العربي لا يُشقّ لهما غبار، فقد كانت أفكارهما إثراء للغة القرآن، ولولا الأخفش ما وصل إلينا كتاب سيبويه، ولولا الفراء لضاع من العربية الكثير

الهوامـــــــش:

(1) فقد عد منها ابن فارس ثمانية عشر وجها من وجوه الاختلاف، ينظر الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب ، ابن فارس، تح:عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت،ط1، 1993م، ص 50 وما بعدها.

(2) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، أبو البركات الأنباري،تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية،صيدا، بيروت 1/97.

(3) هو أبو علي الفارسي المتوفي سنة 377هـ.

(4) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني، الهيئـــــــة المصرية العامة للكتاب،ط4 ،1/206.

(5) ينظر: الإنصاف 1/185 والتبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين، أبوالبقاء العكبري، تح: عبد الرحمان العثيمين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص: 341.

(6) الخلاف النحوي بين البصريين والكوفيين وكتاب الإنصاف، محمد خير الحلواني، دار القلم العربي بحلـب، ص: 69.

(7) الأخفش الأوسط أمقلد هو أم مجدد لعبد الكريم الأسعد ضمن مقال في مجلة البحوث الإسلامية، عدد 38، ص: 321.

(8) الخلاف النحـــوي ص: 69.

(9) الخصائـــــــص 1/168.

(10) ينظر: على سبيل المثال لا الحصر تفسير غريب القرآن، ابن قتيبة،تح: أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص: 118.

(11) ينظر: على سبيل المثال الكتاب،سيبويه، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، ط1، 1991، 3/187.

(12) نفسه، 4 / 431 - 434.

(13) ينظر: على سبيل المثال معاني القرآن، الفرّاء، تح: محمد علي النجار،وأحمد يوسف نجاتي، عالم الكتب، بيروت، ط2 ، 1980، 1/108، 1/138،1/129، 2/374.

(14) ينظر: نفسه، 3 / 198، 2 / 190.

(15) الدراسات اللغوية عند العـــرب، دار مكتبة الحياة، ط1، 1980، ص: 103.

(16) مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم، عمر الدقاق، مكتبة دار الشرق، سوريا، ص: 136.

(17) نفسه، ص: 136 - 137

(18) ينظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ابن خلويه، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، (مقدمة التحقيق)، ص: 10.

(19) ينظر: المفصل في تاريخ النحو قبل سيبويه، محمد خير الحلواني،مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1، 1979م، 1 / 207 - 209.

(20) ينظر: معاني القرآن، الأخفش،تح: فائز فارس، دار البشير ودار الأمل،ط2، 1981م،

الكويت، (مقدمة التحقيق 1 /55).

(21) وهو من الخفش، ضعف في البصر وضيق في العينين، وقيل صغر في العين خلقة، وقيل هو فساد في جفن العين واحمرار تضيق له العيون من غير وجع ولا قرح، خفش خفشا، فهو خفش وأخفش. ينظر لسان العرب: مادة (خفش).

(22) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، السيوطي، تح: محمد جاد المولى بك، ومحمد أبو الفضل إبراهيم،وعلي البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، 1982، 2 /453 - 454.

(23) نفســـــــــــــه، 2 /453 - 454.

(24) الكتاب (مقدمة التحقيق)، 1 /26.

(25) طبقات النحويين واللغويين،الزبيدي، تح: محمـــــد أبو الفضل، ط1، 1954م، ص: 70.

(26) معاني القرآن للأخفش (مقدمة التحقيق)، 1 /27.

(27) نفسه، 1 /36.

(28) ينظر: نفسه، 1 /41 وما بعدها، حيث عد المحقق من كتب الأخفش التي وصلت إلينا خمسة فقط، وعد من الكتب التي لم تصل إلينا خمسة عشر كتابا.

(29) طبقات النحويـــــــــــــــن واللغويين، ص: 70.

(30) ينظر: معاني القرآن للأخفش (مقدمة التحقيق)، 1 /57.

(31) ينظر: على سبيل المثال معاني القـــرآن، 1 /23 - 107.

(32) نفســـه: 1 /193-95-41-22.

(33) نفســـه: 1 /174، 197، 215.

(34) نفســـــــــــــه، 1 /166.

(35) ينظر: نفســـــــــه، 2 /274.

(36) ينظر: معاني القرآن، 1 /158.

(37) ينظر في ترجمته شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن عماد الحنبلي،تح: محمد الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط1، 1986م، 2 /19.

(38) معاني القرآن، للفراء، تح: محمد علي النجار،وأحمد يوسف نجاتي، عالم الكتب، بيروت، ط2، 1980م،(مقدمة التحقيـــــــــــــــق)، 1 /9.

(39) طبقات النحويـــــــــــــين واللغويين، ص: 132.

(40) شذرات الذهـــــــــــــــــــب، 2 /19.

(41) طبقات النحويين واللغويـــــــــــــن، ص: 133.

(42) ينظر معاني القرآن (مقدمة التحقيق)، 1 /10 - 11.

(43) طبقات النحويين واللغويـــــــــــين، ص: 132.

(44) هو أبو محمد الحسن بن سهل السرخسي وزير المأمون (ت 131هـ)، ينظر: معاني القرآن للفراء (مقدمة التحقيق)، ص: 1 /12.

(45) المصدر السابـــــق، ص: 132.

(46) معاني القرآن (مقدمة التحقيـــــــــــــــق)، ص: 1/1.
(47) معاني القرآن للأخفش (مقدمة التحقـــــــيق)، ص: 1 /115.
(48) طبقات النحويـــــــــــــــــن واللغويين، ص: 133.
(49) يمكن أن نجمل منهج الأخفش في تتبع القرآن في نقاط ثلاث هي:
أ. الانسياق وراء البصريـــين.
ب. الانتصار لبعض الكوفيين.
جـ الانفراد بآراء خاصـــــة.
(50) معاني القرآن للفراء، ص: 1 /358.
(51) ينظر: معانـــــي القرآن، 1 /19.
(52) نفســـــــــــــــه، 1 /20.
(53) الآية 1 من ســـــــورة آل عمران.
(54) معاني القـــــــــــرآن، 1 /22.
(55) الآية 1 من ســـــــــورة القلم.
(56) معاني القـــــــــــرآن، 1 /22.
(57) من الآية 2 من ســـــورة الأعراف.
(58) المصدر السابـــــــق، 2 /293.
(59) من الآية 2 من ســـــورة الأعراف.
(60) الآية 1 من ســـــــورة السجدة.
(61) الآية 1 من ســـــــــورة هود.
(62) معاني القـــــــــرآن، 1 /368.
(63) نفســـــــــــــــه، 1 /369.
(64) ينظر: ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم ،أحمد سليمان ياقوت، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983،ص: 253 وما بعدها.
(65) ينظر: على سبيل المثال تفسير الجلالين، جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي، مطبعة دار إحياء الكتب العربية، بيروت ،ص: 20.
(66) ينظر: على سبيل المثال صفوة التفاسير، محمد الصابوني،دار القرآن الكريم، بيروت، ط1، 1981، 1 /17.
(67) ينظر تفسير الطبري،المسمى جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1984م، 1 /81.
(68) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، دار الكتاب العربي، تح: مصطفى حسين أحمـــــــــــــــد، 1986م، 1 /12 - 33.
(69) ينظر: تفسير المنار،محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان،ط2، 1 /103.
(70) الإيضاح في علل النحو،الزجاجي، تح: مازن المبارك، القاهرة، دار العروبة، 1959م، ص:

.49
(71) ينظر: الكتاب، 3/257 ويقارن به معاني القرآن للأخفش، 1 /19 وما بعدها.
(72) ينظر: الصفحة 11 من هذا البحث.
(73) الإنصـاف، 1 /82.
(74) التبيين، ص: 266.
(75) نفسـه، ص: 267.
(76) من الآية 40 من سـورة البقرة.
(77) من الآية 41 من سـورة البقرة.
(78) معاني القرآن للأخفش، 1/76.
(79) الكتـــــــــــاب، 1 /81.
(80) من الآية 5 من سورة النحـل.
(81) معاني القـــــرآن، 2 /95.
(82) معاني القـــــرآن، 2 /255.
(83) شرح قطر الندى وبل الصدى، ابن هشام، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، ط11، 1383هـ، ص: 210.
(84) ينظر الصفحة الموالية من هذا البحث.
(85) من الآية 137 مـــــن سورة الأنعام.
(86) معاني القـــــــــــرآن، 2 /287.
(87) من الآية 47 من ســــــورة إبراهيم.
(88) معاني القرآن، 2 /377. المصـــــــدر نفسه، 1 /357.
(89) نص البيت: فزججتها بمزجة * زج القلوص أبي مزاده. وهو بيت مجهول القائل، وهو من شواهد سيبويه في بعض نسخ الكتاب وأنشده أيضا ابن الأنباري وصاحب الخزانة. وقال أنشده أبو الحسن الأخفش. ينظر: هامش الكتاب، 1 /176.
(90) معاني القـــــــرآن، 1 /358.
(91) من الآية 47 من سورة إبراهيـــم.
(92) معاني القرآن، 2 /79 وما بعدها.
(93) يقصد الفراء بمصطلح الصفة الجار والمجرور لأنها تؤول بهما وهو اصطلاح الكوفيين، ينظر: معاني القرآن، 2 /81.
(94) ينظر: معاني القـــــــــــــرآن، 2 /82 وما بعدها.
(95) يقصد بالجار والمجرور المضاف إليه، ينظر: الكتاب، 1/186.
(96) ينظر: معاني القرآن، 1 /352.
(97) تفسير المنـــــــار، 8 /125.
(98) الآية 180 مـــن سورة البقرة.

(99) ينظر: قطر الندى، ص: 93-92.
(100) الآية 36 من سورة الشورى.
(101) الأخفش الأوسط أمقلد هو أم مجدد لعبد الكريم بن محمد الأسعد، مقال ضمن مجلة البحوث الإسلامية، عدد 38، ص: 292.
(102) ينظر: التبيان في إعراب القرآن، أبو البقاء العكبري، تح: علي محمد البجاوي،دار الجيل،بيروت، ط2، 1987م، 1 /146، وينظر: المعاني، 1 /158.
(103) معاني القرآن، 1 /110. ويقول العكبري: ويجوز أن يكون جواب الشرط معنى الإبصاء، لا معنى الكتب وهذا مستقيم على قول من رفع الوصية بكتب وهو الوجه. التبيان، 1 /147.
(104) الكتاب، 3 /65-64. وقال الأصمعي أن النحويين غيروا هذا البيت وأن أصله: من يفعل الخير فالرحمن يشكره. وهذا البيت هو لحسان بن ثابت في الكتاب.
(105) ينظر: الكشاف، 1 /224. يقول معناه: كتب على المحتضر أن يوصي للوالدين والأقربين بتوفير ما أوصى به الله لهم عليهم، وأن لا ينقص من أنصابهم.
(106) ينظر: في النحو العربي نقد وتوجيه،مهدي المخزومي، منشورات المكتبة العصرية ،صيدا ن بيروت ،ط1، 1964م، ص: 287.
(107) الآية 150 من سورة البقرة.
(108) معاني القـــرآن، 1 /152.
(109) ولم نقف على قائله فيما بين أيدينا من مصادر رغم وروده في معاني القرآن للأخفش، 1 /152.
(110) معاني القـــرآن، 1 /152.
(111) الآية 11 من سورة النمل.
(112) معاني القـــرآن، 2 /287.
(113) البيت في الإنصاف وأنشده الخليل في الجمل في النحو، تح: فخر الدين قباوة، ط5، 1995م، ص: 293.
(114) الآية 46 من ســـــــــورة البقرة.
(115) الجمـــــل، ص: 293، 300 - 301.
(116) الإنصـــــــــــــاف، 1 /266.
(117) ينظر: الكتـــــــــــاب، 2 /334.
(118) ينظر: معاني القـــــرآن، 2 /287.
(119) تفســـــــــــير الطبري، 2 /34.
(120) ينظر تفسير الجلالين، ص: 22-21.